بسم الله الرحمن الرحيم

ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس

القرآن الكريم والبيئة

مؤسسة آل البيت الملكيّة للفكر الإسلامي
عمّان ، الأردن
ARABIC SERIES - BOOK 7

بسم الله الرحمن الرحيم

ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي
ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ

(الروم، ٣٠:٤١)

القرآن الكريم والبيئة

غازي بن محمد، رضا شاه- كاظمي، آفتاب أحمد

عمّان، الأردن

أيلول ٢٠١٠

المحتويات

موجز تنفيذي

تعرض هذه الدراسة موضوع الإسلام والبيئة في أربعة مجالات:

أولاً: تناقش هذه الدراسة نظرة الإسلام إلى البيئة: يتحدث القرآن الكريم كيف خلق الله البيئة بالحقّ وأن كل شيء في البيئة آية من آيات الله عزّ وجلّ وتسبّح باسمه. وهكذا فإن القرآن الكريم يرينا القيمة المتأصلة في المخلوقات وفي الحياة وأن على الإنسان احترام وتثمين كل كائن حيّ موجود في الطبيعة واعتباره مخلوق مثله.

ثانياً: تطرح هذه الدراسة السؤال التالي: ما طبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة؟ كيف يجب على الإنسان أن يتصرف تجاه البيئة؟ خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ليكون خليفته في الأرض وجعل الأرض مسكن الإنسان وجعل في الأرض كل ما يحتاج إليه الإنسان. وللإنسان الحق في أن يستعمل الأرض والحيوانات والمعادن لمساعدته ولكن يتلازم هذا الحق مع المسؤولية وهي أن تتجلّى في الإنسان صفات الخالق والتي أوجدها الله سبحانه وتعالى في فطرة الإنسان ومن هذه الصفات الأساسية الرحمة والعدل.

ثالثاً: تناقش هذه الدراسة فساد الإنسان الأخلاقي وارتباط ذلك بالتلوث البيئي. يضع القرآن الكريم مبادئ توجيهية روحانية وأخلاقية متكاملة

للإنسان. يقول الله في القرآن الكريم للإنسان وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ (لقمان، ٣١:١٩)؛ ويأمره بأن لا يكون مسرفاً ومنغمساً بالترف وألّا يخلّ بالتوازن الذي تتمتع به الطبيعة وألّا يغيّر في خَلق الله. وفي وقتنا هذا يتمّ تجاهل كلّ هذه الأوامر بل ويُحبّذ البشر نقائضها. حين يعيش الإنسان بهذه الطريقة فإنه يهزّ توازن الخَلق ولا يمكن إلّا وأن يتسبب هذا بعواقب وخيمة لعالمنا الذي نعيش فيه.

رابعاً وأخيراً: تعرض هذه الدراسة كيف أن تطهير نفس الإنسان يساعد في مواجهة الأزمة البيئية. وأنه يجب مواجهة أسباب الأزمة البيئية الجذرية إن أردنا مواجهة هذه الأزمة بشكل فعّال والأسباب الجذرية ليست مجرد انتشار الاهتمام بالأمور المادية بين البشر – الأمر الذي يعتبر من المسببات الرئيسية للأزمة – وإنما فساد البشر الأخلاقي بشكل عام أيضاً والذي أفسد نِعَم الله في الأرض وبالتالي بيئتها الملموسة أيضاً وذلك من خلال إفساد جو الأرض الروحي. يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ [يرجعون إلى الله عزّ وجلّ] (الروم، ٣٠:٤١)

الباب الأول

قدسية البيئة

(أ) الخَلْق

يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ (الدخان، ٤٤:٣٨)

ويقول عزّ وجلّ:

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ... (الحجر، ١٥:٨٥)

تدل هذه الآيات على أن هناك معنى وهدفاً وراء خَلْق الله. وأن البيئة المخلوقة ليست مجرد شكل عشوائي وإنما انعكاس للحقّ، والحقّ من أسماء الله الحسنى. والبيئة انعكاس وتجلّ لعدد من أسماء الله الحسنى وصفات الرحمن عزّ وجلّ. وعرّفنا الله سبحانه وتعالى بهذه الصفات من خلال وصفه لنفسه عزّ وجلّ في القرآن الكريم. وتُذكر أربعة من أسماء الله الحسنى في الآية الكريمة التالية:

هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ ... (الحديد، ٥٧:٣)

ماذا نفهم من اسم (الظاهر)؟ الظاهر هو ما يحيط بنا أي محيطنا، البيئة. وهكذا فإن الله عزّ وجلّ يخبرنا بأن البيئة انعكاس لاسم (الظاهر) ودليل ذلك الآية الكريمة التالية:

وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة، ٢:١١٥)

الآيتان السابقتان تؤكدان سرّ وأعجوبة وجود الله في عالم الطبيعة. فالله عزّ وجلّ خلق عالم الطبيعة لأسباب يعرفها الله تعالى وحده وهذا بحد ذاته يمنح البيئة والطبيعة قدسية يجب أن يعترف بها كلّ مؤمن وبالتالي فعلى كل مؤمن أن يحترم الطبيعة وأن يحرص عليها. كما على المؤمن أن يعرف أنه بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى العالم لم يترك الخَلْق ليكون واقعاً مستقلاً قائماً لوحده، يقول الله في القرآن الكريم:

ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ... (الروم، ٣٠:١١)

ويقول تعالى:

... يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ ... (فاطر، ٣٥:١)

وبالطبع فإن كل هذا يحدث بمعرفة الله سبحانه وتعالى:

... وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا ... (الأنعام، ٦:٥٩)

هذه الآيات توضح أفعال الله عزّ وجلّ ومعرفته في خلقه. ويجب أن يكون المؤمن على وعي تام بهذا وأن يتفكر في عواقب كل ما يفعله وهو يتفاعل مع البيئة. وأفعال الله عزّ وجلّ واضحة في خَلْقه وهو يعرف تفاصيلها كلها.

تزيد الآيات التالية تبجيلنا للطبيعة من خلال توضيح نقطتين عن الخَلْق:

لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (غافر، ٤٠:٥٧)

بالإضافة إلى:

... مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ ... (المُلك، ٦٧:٣)

إن تعقيد وجمال وتناغم الطبيعة تغمر الإنسان بالرهبة وتسحر حتى غير المؤمنين وتثير دهشتهم.

(ب) آيات الله عزّ وجلّ

تُسمى الظواهر الطبيعية آيات وهي الكلمة التي نستعملها حين نقول "آيات القرآن".

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (آل عمران، ١٩٠ : ٣)

إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (يونس، ٦ :١٠)

نرى من هذا أنه يمكننا النظر إلى البيئة على أنها قرآن كوني لها ظواهر طبيعية متناظرة مع آيات كتاب الله تعالى - كما تذكرنا الآيتان أعلاه – وضعت لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ولِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ليقرؤوها. هذا يعني أن هناك دروس يجب تعلمها من البيئة. فمن خلال مراقبة الطبيعة أو من خلال التواجد في الطبيعة يجب أن نكسب معرفة وبصيرة عميقتين عن أساليب عمل الكون وعن الخالق عزّ وجلّ وحتى عن أنفسنا.

وآيات القرآن الكريم توضح بشكل صريح الأهمية الكبرى التي تتمتع بها ظواهر الطبيعة البِكر. والله يقسِم بالكثير من الظواهر الطبيعية: وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا (الشمس، ١ :٩١)؛ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (الليل، ١ :٩٢)؛ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ

(التكوير، ٨١:١٥) إلخ. ويتميز القرآن بإشاراته الكثيرة والعميقة والرقيقة إلى ظواهر الطبيعة البكر فلا يحتوي أيّ كتاب مقدس على هذا الكَمّ من الإشارات إلى جمال عالم الطبيعة. وكثير من أسماء سور القرآن الكريم تشير إلى أهمية عالم الطبيعة مثل: 'الرعد' و'النجم' و'القمر' و'الشمس' و'الفجر' و'الضحى' و'الأحقاف' و'الدخان' و'الذاريات' و'الحديد' و'النمل' و'النحل' و'العنكبوت' و'الأنعام' و'الفيل' و'التين' وهكذا. فهذه الإشارات المستمرة إلى ظواهر الطبيعة البكر تدعو المرء إلى التفكر والتأمل والتدبر في آيات الطبيعة البكر على أنها تعبير لقدرة الرحمن الخلاّقة وبالتالي هي أمور مباركة في جوهرها.

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ (الغاشية، ٢٠ – ١٧: ٨٨)

ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (آل عمران، ١٩١:٣)

(ج) 'يسبّح له من في السموات والأرض'

كل شيء في الوجود يسبّح لله سبحانه وتعالى.

تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء، ١٧:٤٤؛ انظر أيضاً ٥٧:١، ٥٩:١، ٦١:١، ٦٢:١، ٦٤:١، ٢٤:٤١ و٥٩:٢٤)

هذا بحدّ ذاته شرح وافٍ لموقف الإسلام من البيئة: سواء فهمنا ذلك أم لا فإن كل شيء في الطبيعة خَلْق الله تعالى الذي يسبّح له بشكل مستمر، الجبال والبحار والأشجار والشمس والقمر والنجوم إلخ. ولهذا فيتوجب احترام كل ظاهرة طبيعية على أنها خَلْق الله تعالى ولأنها آية من آيات الله ولأنها تسبّح لله سبحانه وتعالى. وكل شيء يذكر الله حتى الحشرة الصغيرة والله تعالى يوضح هذا في القرآن الكريم:

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ

كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ (البقرة، ٢:٢٦)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ (الحجّ، ٢٢:٧٣)

على المسلم أن يكون واعياً لأصل وجمال ووظيفة وأعجوبة كل شيء في الخَلْق. وتلاوة القرآن الكريم تساعد المسلم على فعل هذا. فمثلاً في الآية التالية بعد أن يعطينا القرآن الكريم المفتاح الفكري والذهني لفهم البيئة يعطينا المفتاح الوجودي لهذا الفهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ ... (النور، ٢٤:٤١)

حين نرتّل هذه الكلمات نلاحظ المحاكاة الصوتية في حرف الألف في كلمة صَٰٓفَّٰتٍۖ والتي يجب مدّها قدر ست حركات: والنتيجة ترتيل الكلمة بطريقة توحي بصوت الطيور وهي تطير. هذا يُمَكّن المرتل أو المستمع من اختبار تسبيح

كلّ شيء لله ليس فقط كمفهوم نظري أو ذهني وإنما كواقع محقق وذلك من خلال سماع القرآن. ونتيجة لهذا يجب أن يزيد وعي وحسّ المسلمين بالتسبيح والتمجيد الموجودين في البيئة وفي الطبيعة.

وتسبيح الله تعالى في الطبيعة ليس فقط تسبيح وجودي، فهناك تسبيح حيّ وواعٍ ومتعمد. يرينا الله عزّ وجلّ هذا في الآية الكريمة التالية عن النحل:

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (النحل، ٦٩-٦٨ :١٦)

وهكذا فإن النحلة الصغيرة لها وحي من الله عزّ وجلّ ولعله يمكننا أن نفهم أن المقصود من الوحي هو 'الغريزة الملهَمة' والتي وهبها الله عزّ وجلّ إلى كل المخلوقات بشكل طبيعي وذلك من أجل: (١) أن يتبعوا غرائزهم التي تدفعهم للنمو وحماية أنفسهم والتكاثر (ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ) وأيضاً من أجل (٢) عبادة الله عزّ وجلّ بطريقتهم الخاصة (فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا).

لو قمنا بمقارنة الجانب الثاني من 'الإلهام' الذي تتمتع به المخلوقات بالوحي الذي منحه الله عزّ وجلّ للبشر من خلال الرسل عليهم الصلاة والسلام نرى أن البشر في 'حالة السقوط' الذي يعيشون فيه ما بعد فترة جنة عدن يجب أن يتعلموا فعل ما تفعله النحلة (وغيرها من الحيوانات والمخلوقات) بشكل طبيعي وذلك من خلال الوحي فوق الطبيعي. فقيمة المخلوقات تكمن في وعيها الحقيقي (وبالتالي في تقواها لله عزّ وجلّ)، يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات، ٤٩:١٣)

وتباعاً فإن كل المخلوقات في العالم أقل ضلالة وأقل 'وحشية' من الإنسان والجن الغافلين. والله سبحانه وتعالى يؤكد هذا في القرآن الكريم.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ (الأعراف، ٧:١٧٩)

فهذا إذاً سبب آخر قوي جداً ليحترم المسلمون الطبيعة ومخلوقاتها حيث أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقها وهي آيات الله وكلها تسبّحه عزّ وجلّ بل وأيضاً كل المخلوقات الموجودة في الطبيعة بطبيعتها أقل ضلالاً وبالتالي أكثر نبلاً من البشر الغافلين في نظر الله عزّ وجلّ!

ويجدر الذكر هنا أن كل المخلوقات تشكّل أمماً تفاعلية تماماً مثل البشر. يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ (الأنعام، ٦:٣٨)

كل فصيلة إذاً هي أمة، أمة من المخلوقات الموجودة بسبب الإرادة الإلهية وهم مستلمون للـ'وحي الطبيعي'. وكل من هذه المجتمعات أو الأمم لها طريقة مميزة باستلام الوحي الطبيعي (وهو الأمر الذي يميزها عن أي فصيلة أخرى)، وبالتالي تنفرد بالطريقة التي تصلّي فيها وتسبّح الله عزّ وجلّ. فكل فصيلة لها 'دينها' الخاص إن صحّ التعبير ولها 'شعبها' تماماً كـ'أنفسنا' ويجدر أن يكون هذا تحذيراً قوياً لنا لنحترم ونثمّن ونتعاطف مع الطبيعة وكل مخلوقاتها.

لو كان وعينا للعالم الطبيعي بحسب ما يعلمنا القرآن الكريم لرأينا أن فقدان أي فصيلة من الكائنات الحية ليس مجرد مصيبة وإنما انتهاك لحرمة الكون. وكل فصيلة أمّة وليس مجرد سمة عرضية من سمات النشوء والتطور يمكن تبرير فقدانها في سبيل تقدم البشر على سلّم النشوء والتطور. بل على العكس فإنها تجلٍ للقدرة الإلهية المباركة الخلاّقة. لذا فإن فقدان أي فصيلة ليس أمراً مأساوياً وقاسٍ وغير أخلاقي فحسب بل وتجديف وتمرد ضدّ الله عزّ وجلّ. يقول تعالى في القرآن الكريم:

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (المائدة، ٥:٣٢)

يمكننا الاستنتاج مما سبق أن انقراض فصيلة بريئة كاملة أمر بنفس خطورة قتل نفس بريئة وبالتالي فإنه مماثل لقتل كل البشرية والله أعلم.

الباب الثاني

العلاقة بين البيئة والإنسان

(أ) خليفة الله

كلمة خليفة القرآنية والتي يستعملها تعالى لوصف سيدنا آدم عليه السلام للملائكة تلخّص حقوق ومسؤوليات الإنسان تجاه البيئة:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...

(البقرة، ٢:٣٠)

ويقول سبحانه عن البشر:

ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ... (فاطر، ٣٥:٣٩)

إذاً فإن الإنسان ممثل الله عزّ وجلّ على الأرض وعلى البشر التصرف والعيش بشكل مسؤول في هذا العالم وهذا يعني أنه إن لم يكن البشر مكلّفين بالمحافظة على العالم أو برعايته فعلى الأقل يجب عليهم ألّا يدمروه. فالبشر موجودون على الأرض لفترة محدودة وكل ما يحتاجون إليه للبقاء متوفر فيها. يقول سبحانه:

... وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ (البقرة، ٢:٣٦)

وأيضاً:

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ ... (الملك، ٦٧:١٥)

الأرض خاضعة للبشر وتوفر لهم احتياجاتهم ولكن يجب وضع هذا الخضوع في سياقه الصحيح في ضوء ما سبق وقلناه من أن كل شيء في الطبيعة قد خلقه الله سبحانه وتعالى وصفات الله تتجلى في خَلْقه الذي يسبّح الله وواع لوجوده بشكل مستمر. وكون الأرض خاضعة للإنسان لا يعني أن الإنسان حرّ يفعل فيها ما يشاء أو ليخلّ توازن الطبيعة. والله سبحانه وتعالى أوضح هذا في الآيات الكريمة:

خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو

ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

(الرحمن،١٣-٣:٥٥)

لا يُسمح للبشر أن ينهبوا موارد الأرض بشكل مستهتر ويتسببوا بالضرر للبيئة وعدم مراعاة الاستدامة البيئية. ومع أن الأرض خاضعة للبشر، لأن البشر حين يكونون صالحين يعتبرون قمة الخَلْق وخلفاء الله في الأرض، لكن لا يمكنهم التصرف بطريقة تضر ما خلقه الله سبحانه وتعالى. فالبشر في النهاية مجرد رعاة وليسوا مُلّاك. المُلك لله وحده:

أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ (البقرة، ٢:١٠٧؛ انظر أيضاً ١٨-٥:١٧، ٥:٤٠، ٥:١٢٠، ٩:١١٦، ١٧:١١١، ٢٤:٤٢، ٢٥:٢، ٣٥:١٣، ٣٩:٤٤، ٤٠:١٦، ٤٢:٤٩، ٤٣:٨٥، ٤٥:٢٧، ٤٨:١٤، ٥٧:٢، ٥٧:٥، ٦٤:١، ٦٧:١ و٨٥:٩)

فيمكن للبشر أخذ قوْتهم الأساسي فقط وذلك بامتنان وتقدير لحقيقة أنهم لم يخلقوا هذا القوت الذي هو هبة من خالقهم ولا يحقّ لهم أن يسيئوا استعمال هذه الهبة. يقول تعالى في القرآن الكريم:

وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَـٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ
مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ

(الحجر، ٢٠-١٩:١٥)

(ب) الكبير والصغير يعكسان بعضهما بعضاً

يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ... (فصلت، ٤١:٥٣)

وأيضاً:

وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

(الذاريات،٢١-٢٠:٥١)

في هذه الآيات يربط الله عزّ وجلّ آياته في البيئة بآياته الموجودة في أنفسنا. وهذا يعني أنه يمكن رؤية انعكاس العالَم الكلّي الإلهي في العالَم الصغير - أي الإنسان – وفي العالم الكبير – أي الكون. بعبارة أخرى فإن الإنسان مثل العالم الصغير والكون مثل الإنسان الضخم ومن خلال قدرتنا على تمييز الآيات في أي من هذين العالَمين يمكننا معرفة حقيقة الله سبحانه وتعالى فآياته موجودة في أنفسنا وفي العالم.

ويضاهي الجمال المتأصل في النظام الطبيعي جمال خَلْق الله للإنسان:

... مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (الملك، ٦٧:٣)

لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ (التين، ٩٥:٤)

لا يمكن للطبيعة أن تغير في نفسها ولكن الإنسان قادر على ذلك، فالإنسان يمتلك حرية الاختيار ويمكنه اختيار تجاهل أوامر الله سبحانه وتعالى. حين يفعل الإنسان ذلك فإنه يصير أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ (التين، ٩٥:٥). هذا الارتباط الأشبه بالمرآة بين العالم الكبير والعالم الصغير يحتّم أن يقوم فساد العالم الصغير بإفساد العالم فعلياً من خلال أفعال البشر وروحانياً أيضاً. وهكذا فإنه في القرآن الكريم حتى الجنّ فإنهم يلحظوا التغيرات في 'المناخ' السماوي:

وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨
وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ
شِهَابٗا رَّصَدٗا (الجن،٩-٧٢:٨)

ففساد البشر الداخلي ليس معكوساً في فساد العالم الخارجي فحسب بل وهو سببه الفعلي بشكل مباشر وملموس (من خلال إفساد البشر للعالم وقيامهم بإخلال التوازن الطبيعي) وكذلك من الناحيتين الروحانية والوجودية (لأن فساد البشر الداخلي يغير الظروف الوجودية الدقيقة للعالم المادي وذلك من خلال جعلها ملموسة وقطعها عن رحمة السماء). ولهذا السبب بالضبط لا يمكن

لأي مبادرة بيئية علمية أن تنجح بشكل كامل من دون تجدد روحي لدى البشر وهو أيضاً سبب احتياج التجدد الروحي إلى نشاطات ومبادرات بيئية من أجل النجاح. هذه الفكرة والبصيرة هي السرّ المفقود الذي يحدّ من نجاح أي محاولات لإنقاذ البيئة في عصرنا: فعلماء البيئة يعتقدون أنهم يعرفون العالم ويستطيعون إنقاذه من دون أن يعرفوا وينقذوا أنفسهم أولاً.

الباب الثالث

فساد الإنسان الأخلاقي والتلوث البيئي

(أ) التوجيهات القرآنية بالنسبة للتوازن البيئي

إن القرآن الكريم يعرض للإنسان توجيهات روحانية وأخلاقية كاملة بالنسبة للبيئة ويخبر الإنسان أن يمشي 'عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا':

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا (الفرقان، ٢٥:٦٣)

كما يأمر البشر أن يقوموا بما عليهم من واجبات ومسؤوليات وألّا يكونوا مسرفين أو مبذرين؛

۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (الأنعام، ٦:١٤١)

... وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا (الإسراء، ٢٧-١٧:٢٦)

ويأمر تعالى البشرَ ألّا يخلّوا بالتوازن الموجود في الطبيعة؛

وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ (الرحمن، ٨-٥٥:٧)

ويأمر البشرَ ألّا يغيروا في خَلْق الله سبحانه وتعالى وهو أمر سوف يحثهم الشيطان عليه.

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ ... (النساء، ٤:١١٩)

يتم تجاهل كل هذه الأوامر في عصرنا هذا لدرجة أنه حتى نقيضها صار يُنظر إليها بعين القبول والرضا. نحن البشر نمشي باختيال على الأرض كأننا نملكها وكأنه يمكننا فعل ما يحلو لنا. أسلوب حياة التبذير والإسراف الذي في ازدياد بين البشر سيؤدي لا محالة إلى نهب وتدمير خيرات الأرض. ويُصوّر أسلوب الحياة الذي لا يمكن له الاستدامة على أنه هدف يجدر على البشر تحقيقه وحتى على أنه الوضع الطبيعي للأمور. أن نعيش بهذه الطريقة يعني اختلال توازن البيئة ويحتم أن يعيش الآخرون حياة حرمان وفقر وبؤس. موارد الأرض

محدودة وكلّما قامت فئة محدودة من البشر بالاستهلاك كلّما قلّت الموارد المتاحة لفئة أخرى. العبث بالطبيعة لكي 'نحسّنها' عارض واضح من عوارض الغطرسة التي يعاني منها الإنسان المعاصر الذي لا يدرك العلاقات الدقيقة والمعقدة التي تربط الظواهر الطبيعية بعضها ببعض وينظر إليها على أنها كيانات فردية منفصلة يمكن التلاعب فيها من دون النظر إلى غيرها من الكيانات. فنحن كبشر ندمر الجبال ونبني الجُزر ونمسح الغابات عن الوجود ونملأ البحار سُمّاً وقمامة ونقضي على الحيوانات البرية وبالمقابل نستنسخ الحيوانات الأليفة ونقتل الطيور ونصنع مكبّات خردوات في السماء ومكبّات قمامة في الأرض ونستنزف الأرض من أجل كنوزها ونصحّر السهول في حين نبني ملاعب الغولف في الصحراء وهكذا. فالبشر الآن يعيدوا تشكيل البيئة والتي هي انعكاس للخالق عزّ وجلّ حتى أوشكت أن تصير صورة لفساد الإنسان. ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى يقول بشكل صريح في القرآن الكريم ألّا نفعل هذه الأمور ونخلّ في توازن الطبيعة ويخبرنا سبحانه كيف علينا أن نتصرف:

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا
وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟

ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو
ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (الرحمن،
١٣-٣:٥٥)

(ب) التجاوزات الأخلاقية والعقاب

عندما ينحط مجتمع إلى درجة أن الأنبياء ورسائلهم يتم تجاهلهم تماماً فإن النتيجة الحتمية لذلك هي العقاب وتصحيح ذلك. ويأتي هذا التصحيح بصورة كارثة 'طبيعية' كفيضان مثلاً أو عاصفة رملية أو هزّة أرضية إلخ. فالطبيعة لها رد فعل تجاه فساد الإنسان الروحاني والنتائج مريعة.

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [يرجعون إلى الله عزّ وجلّ] (الروم، ٣٠:٤١)

ما هو هذا 'الفساد' في 'البرّ والبحر' الذي كسبته 'أيدي الناس'؟ بالنسبة للشخص الذي يقرأ القرآن في يومنا هذا فإن هذه الآية تبدو نبوءة قوية تصف وضعنا الحالي. فأيدينا قد أفسدت 'البرّ والبحر' بالمعنى الحرفي والآن سوف نذوق نتائج أفعالنا وأفعال أسلافنا وذلك ليس لنُعاقب وإنما لندرك ضرورة أن نرجع إلى الله عزّ وجلّ وليس لنشعر بالحزن بل لنكرّس أنفسنا لتصحيح الخطأ ولنعود إلى حالة التوازن التي خُلِقنا عليها. أن نذوق نتائج أفعالنا يعني أن نقبل أننا مسؤولون أن نصحح ما فعلناه نحن وأسلافنا فنحن بصفتنا أفراداً من

الجنس البشري نشكّل وحدة عضوية. يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ... (لقمان، ٣١:٢٨)

ولكن إن لم نلتفت إلى الإشارات التي تتجلّى بشكل واضح فماذا يمكننا أن نتوقع؟ القرآن الكريم مليء بالأمثلة التي ترينا كيف عوقبت مجتمعات مختلفة بقوى الطبيعة وكيف قامت الطبيعة بتصحيح اختلال التوازن الذي سبّبه الإنسان للأرض.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (العنكبوت، ٢٩:٤٠)

من المهم والمثير للاهتمام أن نلحظ أن الإنسان في هذه الآية الكريمة يتم تدميره بواسطة العناصر التقليدية الأربعة: الهواء (حاصباً)؛ النار ('الصيحة' أو البرق المكوّن من طاقة نارية – ومن الجدير بالذكر أن رمزية النار الخالصة في القرآن محفوظة إما لجهنم أو للشمس أو للقدسية كما هو مقصود في نار الله المباركة [انظر سورة النمل، ٩-٢٧:٨]) – الماء (الطوفان)، والتراب (الزلزال).

يجب ألّا نعتبر العناصر التقليدية الأربعة (الهواء والنار والماء والتراب) هي نفسها العناصر الموجودة في الجدول الدوري الحديث للعناصر الحديثة وإنما يجب علينا أن ننظر إليها على أنها أصل الحالات الفيزيائية أو المادية الأربعة (الغاز، الطاقة، السائل والصلب) والذي تمثلها بشكل مثالي المكونات الأربعة لبيئتنا والتي تظهر بشكل طبيعي (أي الهواء والنار والماء والتراب والتي تتكون منها الطبيعة بشكل فردي أو حين تختلط بعضها ببعض حسب تركيبات مختلفة). وبعبارة أخرى فإن الإنسان سيتم تدميره من قِبَل كل شيء في الطبيعة لأن الإنسان قام بإخلال توازن كل شيء في الطبيعة.

ولكن هذه ليست القصة الكاملة أو حتى السر الحقيقي للآية الكريمة المذكورة أعلاه. فعلى المرء أن يعرف أن الإنسان نفسه مكوّن – بحسب القرآن الكريم – من هذه العناصر الأساسية الأربعة والتي قام بإخلال توازنها: يقول عزّ وجلّ إن الإنسان خُلِق من تراب (غافر، ٤٠:٦٧) [أي عنصر التراب]؛ ومن طين (الصافات، ٣٧:١١) [أي التراب والماء]؛ ومن صلصال (الحجر، ١٥:٢٦) [أي التراب والماء والهواء]، ومن صلصال كالفخار (الرحمن، ٥٥:١٤) [أي التراب والماء والهواء والنار]. يأثم البشر حين تهيمن طبيعتهم الجسدية على الروح التي نفخ الله سبحانه وتعالى فيهم – انظر السجدة،: ٣٢:٧-٩ وص،

٣٨:٧٦ والحجر، ٣٤-١٥:٢٨). وآثام البشر تشارك العناصر الأربعة بعض خصائصها: التراب (ومن هنا الشهوة وغيرها من الآثام التي أساسها الجسد)؛ الماء (الآثام العاطفية أو البلغمية)؛ الهواء (الآثام الفكرية أو الدموية)؛ والنار (الآثام الصفراوية). ويجسد هذه الآثام قبائل سيدنا لوط عليه السلام وفرعون (أو سيدنا نوح عليه السلام)؛ وسيدنا هود عليه السلام المرسل إلى قوم عاد وسيدنا صالح عليه السلام حيث دُمِروا بالحجارة، الماء، الريح والصاعقة على التوالي (انظر الذاريات، ٤٤-٥١:٣٢؛ النجم، ٥٣-٥٣:٥٠ وغيرها). يقول تعالى: فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ ... وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (العنكبوت، ٢٩:٤٠).

نفهم من هذا أنه وبشكل غير مباشر فإن آثامنا تسبب دمار العالم (وبالتالي دمارنا أيضاً) بل حتى أن آثامنا هي نفسها دمار العالم. فلن يتوقف دمار العالم حتى تتوقف آثامنا.

وأخيراً يجدر بنا القول إنه مع أن ليس كل من على الأرض مذنب بإساءة استعمالها لكن حتى الأبرياء يرجّح أن يعانوا من ذلك فقد حذّرنا الله سبحانه وتعالى:

وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (الأنفال، ٨:٢٥)

(ج) الطبيعة والآخرة

يقول الله سبحانه وتعالى إنه حين يأتي اليوم الآخر سيرافقه (أو يسبقه) اضطراب الطبيعة:

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ (التكوير،٦-٨١:١)

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ (الإنفطار،٣-٨٢:١)

كل ما يفعله البشر بالأرض مُسجّل والأرض نفسها سوف تروي كل الأفعال التي يفعلها البشر بها:

إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا (الزلزلة، ٤-٩٩:١)

مع أن الطبيعة اليوم تعاني اضطرابات واضحة لا يعني ذلك أن الآخرة وشيكة إن تغير البشر وتابوا. يقول الله في القرآن الكريم:

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ
ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ (يونس، ١٠:٩٨)

و

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ

(نوح، ٤-٧١:١)

لذا مع أن علامات الدمار تجعل الآخرة تبدو وشيكة لكن توبة وتغير البشر ما زالت قادرة على تأخيرها برحمة من الله سبحانه وتعالى الذي يقول في القرآن الكريم:

أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ
لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (الزمر،٥٤-٣٩:٥٢)

نهاية العالم بأيدينا ولنؤخّر ذلك علينا أن نكون مخلصين في تغيير أنفسنا بإذن الله.

الباب الرابع

تطهير نفس الإنسان ومسؤولية البشر تجاه البيئة

(أ) تغيير ما بأنفسنا

ماذا يجب أن يكون ردنا في ضوء ما سبق؟ كيف نتصرف لنحارب الأفعال والتوجهات غير المسؤولة التي نراها حولنا ونقوم بها بأنفسنا؟ أول ما يجب علينا هو تذكر كلام الله عزّ وجلّ:

... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ (الرعد، ١٣:١١)

الله سبحانه وتعالى لن يغيّر الأوضاع التي نعيشها حتى نغيّر ما في أنفسنا وأرواحنا. فيجب أن تتغيّر نوايانا وتوجهاتنا. يجب أن نتذكر قدسية البيئة والتسبيح الذي تقوم به كل المخلوقات وآيات الله سبحانه وتعالى الداخلية والخارجية. هذا التذكّر سيغير الطريقة التي ندرك ونعي فيها الأمور وهذا بالطبع سيؤثر على أفعالنا وتصرفاتنا تباعاً. يقول عزّ وجلّ:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ (البقرة، ٢:١٦٨)

نعيش في العالم الحديث بكلّ زخارفه وكمالياته وهذه الزخارف والكماليات ليست مما هو طيّباً في الأرض. فنحن نتنقل بالسيارات والطائرات ونستعمل الهواتف ونخزّن الطعام في الثلّاجات ونستعمل المراحيض إلخ. هل نستطيع – وضميرنا مرتاح – أن نستعمل أي شيء أو نفعل أي شيء من دون أن نشعر بأننا نساهم بضرر البيئة؟ هل يمكننا إيجاد حلّ وسط بين أسلوب الحياة المعاصرة وبين احترام البيئة؟ يجب أن نؤمن بأنه يمكننا ذلك. يجب أن نؤمن بأن هناك دوماَ خياراً يمكننا اختياره. بمجرد اتباع أمر الله في الآية أعلاه بأن نأكل الطعام الذي يمكن وصفه على أنه مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا يمكننا تغيير الكثير الكثير. وإن تحلينا بالقوة اللازمة لاتباع الأمر الثاني في الآية الكريمة فسنكون قد تمكّنا من تغيير أنفسنا. من الجلي أن هذا هو الجزء الصعب؛ هذا هو الجهاد الداخلي؛ فهذا الجهد والصراع لنتخلص من عاداتنا السيئة ولنختار أسلوب حياة أكثر بساطة ونقاء لا يمكن تحقيقه إلّا من خلال الصلاة المخلصة. يجب أن نصحح أنفسنا على أساس من الفقر والذكر والبساطة والقناعة ومقاومة الرغبات التي لا تنتهي ومن ثم تذكّر الله سبحانه وتعالى بكل الطرق وخاصة الصلاة. بعد أن نقوم بهذه الأمور يسهل علينا تغيير حياتنا اليومية. يمكننا ممارسة إعادة التدوير وإعادة استعمال الورق ومواد التعبئة والتغليف والحفاظ

على المياه وترشيدها والتقليل من هدر الطعام والتخفيف من الأكل والتقليل من استعمال الطاقة والتخلي عن الكماليات التي لا داعي لها وتجنب التبذير واستعمال الرفاهيات والحفاظ على بيئتنا الطبيعية وعدم التسبب بالتلوث، فعلينا زراعة الأشجار ودعم السلع والمنتجات الصديقة للبيئة والأمر الأكثر أهمية هو أن ندرس هذه الأمور وأن نثقف أنفسنا كيف نقوم بهذه الأمور على أكمل وجه. وباختصار فإنه علينا 'الحدّ' من أسلوب حياتنا المعاصرة والتقليل من نسبة انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون (خطوات ثاني أكسيد الكربون) في حياتنا وحياة أطفالنا اليومية قدر المستطاع لنساهم حقاً في تخفيف الأزمة.

(ب) تغيير عالمنا

يقول الله عزّ وجلّ:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا
ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا
ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا
لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ (إبراهيم،٢٧-١٤:٢٤)

بالإضافة إلى تغيير أنفسنا علينا المساعدة في تغيير العالم. هذا يعني أنه علينا كمسلمين نشر كلمة القرآن الكريم الطيبة (عن الطبيعة) بين المسلمين (والذين يشكلون حوالي ربع سكان العالم) وتشجيعهم –كما نشجع أنفسنا – للقيام بما يلزم. يجب أن نبدأ بعائلاتنا وأصدقائنا ومجتمعاتنا وبلداننا وأن نتذكر أن أفضل كلمة ليست الكلمة التي يقولها شخص معتد بنفسه بأسلوب الوعظ والكلمة التي تعتبر خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ وإنما الكلمة الطيبة هي قدوة يعيشها المرء وأَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ. ندعو العليّ القدير أن تنتشر

كلمة القرآن الكريم الطيبة في كافة أنحاء المعمورة وأن تمنح الأمل ليس فقط لجيلنا بل إلى الأجيال القادمة أيضاً إن شاء الله.